

النزاع على قادش

بين المصريين والحثيين

بقلم الامير موديس شهاب امين دار الآثار اللبنانية

نوطه

كانت البلاد السورية مطمحاً لآمال فراغت مصر ، وكانوا ينازعونها الحثيين . أما اهل البلاد فكان الشاميون منهم يماون ملوك الحثيين ويساعدونهم على المصريين ؛ واهل الجنوب والشرط والبحرة تحت سيطرة المصريين . فاذا قام في مصر فرعون كبير ، اكتسح البلاد السورية ، وطرده الحثيين وحلفاءهم منها ؛ ولكن اذا ضعفت سيطرة ملك مصر ، انتهز ملوك سورية الفرصة للحصول على استقلالهم ، وساعدهم على ذلك ملك الحثيين طمعاً بالاستيلاء على البلاد ، متى توتعت عنها سلطنة ملوك مصر . ولذلك اصبحت سورية الوسطى ميدان قتال الجيشين ، يحتلها من انتصر من العدوين . وكانت المعارك تدور عادة حول بلدين : مجدو جنوباً ، وقادش شمالاً .

أما مجدو^(١) فتقع جنوبي الكرمل ، عند مضيق لا بد للجيش المصري من عبوره ، اذا قصدت سورية الوسطى برأ . وأما قادش فهي مدينة تقوم في سهل البقاع ، بين مجدو وحماه ، وهي على مفرق طرق يمر به الفاتحون من اي جهة اتوا . وقد جهل الآثريون مدة طويلة المكان الذي قامت فيه قادش ، ولم يتمكنوا من تأكد موضعه إلا من زمن قريب .

(١) اسمها اليوم «تل التلسم»

معركة مجدو

وقادش بلد قديم مجهول كثيراً من تاريخه . وجل ما نعلم عنه هو .
 اخبرتنا به حوالات فرائنة مصر التي تمعد انتصاراتهم في البلاد السورية .
 وقد اكتسح الفرعونان توتيس الاول ، وتوتيس الثاني ، البلاد السورية
 يأتيا على قادش بذكر . ولكن لم يمض على فتحهما نحو النصف قرن
 اصطدم بجيوش ملك قادش ، اكبر الفاتحين المصريين ، توتيس الثالث ،
 حصاره لمجدو .

وفحوى الخبر ان توتيس الثالث ، عند وصوله الى شمالي البلاد التي تد
 الآن فلسطين ، سمع ان قوى عديدة تألبت حول ملك مجدو للوقوف
 وجه المصريين ومنعهم عن دخول سورية الوسطى . وعلم ايضاً ان اكثر
 القوى تحت امرة ملك قادش ، وقد كان ملك مجدو استفز حيته ، فجد
 كل ما جاوره من الملوك واسرع الى نجدة .

وما علم توتيس الثالث بالامر الا جمع قواده في مجلس ، وعرض عليه
 خطورة الحال ، وطلب منهم المشورة . فاشار عليه القواد ان يتبع سبلاً وان
 اعتاد الفاتحون طرقه ، وان يهاجم معسكر الاعداء الذين ينتظرونه بالقر
 من مخرج السيل . ولكن توتيس كان على غير هذا الرأي . وقد فط
 ان يطرق مضيئاً حرباً لا يمكن الجيش عبوره بانتظام ، وان يهاجم الاعداء
 حيث لا ينتظرونه . فعارضه القواد في الرأي معارضة شديدة نظراً لضيق الم
 وخطورته ، لو احس الاعداء بان الجيش المصري يمر فيه . ولكن الفرعون تشب
 برأيه وامر القواد بالاذعان لاسره ، ففعلوا مكرهين .

ومن تشب الفرعون برأي كهذا لنا الدليل على ما كان لتدخل ملك
 قادش من التأثير في قلب فاتح كبير يتألب حوله جيش عرمرم . فلو لم يح
 فرعون مصر لجيش الاعداء حساباً كبيراً ، لما خاطر ب حياة رجاله وصر بهم
 ذاك المضيق .

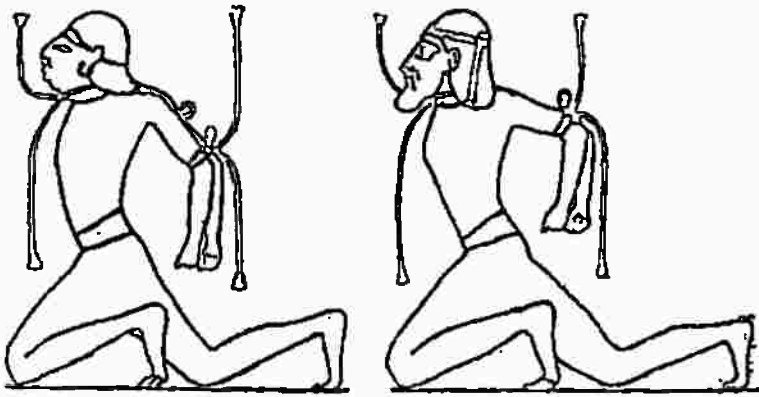
وقد نجحت حيلة الفرعون كل النجاح . ولم يرد الاعداء . طلائع جيشه

ولوا الادبار ، تاركين ما في معسكرهم من الذخائر النفيسة . وقد جزع اهل مجدو كل الجزع ، واقفلوا في وجه الفارين ابواب مدينتهم وتحصنوا فيها . ولم يسع ملك مجدو وملك قادش دخول المدينة الا بتسلقهم جبلاً ادلى بها اهل البلد من اعالي السور . وقد صاح الفرعون بجنده يجرّضهم على ملاحقة العدو قبل دخوله المدينة . ولكن اتى له ان ينصتوا الى اوامره ، بعد ان ترك العدو امامهم ما لا يحصى من الثنائم . واذا فأت المصريين الفرصة ، لم يتمكن الفرعون من الاستيلاء على البلد الا بعد حصار طال بضعة اشهر . وقد وصف الفرعون وصفاً طويلاً خيام ملك قادش وما طرزت به من الفضة ، وعمد الخيام المطلية بالفضة والذهب . وعند استيلائه على المدينة استسلم له ملكها ، وملك قادش ، فوصف الفرعون وصفاً دقيقاً ما اشع به الملكان من الملابس الفاخرة ، وما حملاه من الاسلحة الثينة المطلية بالمعادن النفيسة ، وما رصمت به عجلاتهما من الذهب الخالص .

فارس في يد المصريين

وعاد الفرعون الى بلاده بعد ان استولى على مدن عديدة تدين لملك قادش . ولم ينته الفرعون من حملته هذه حتى شنّ الغارة مرة ثانية على سورية الوسطى ، وقد اتخذ من الاحتياط ما جعل النصره في جانبه . فكانت موافي البلاد الفينيقية حليقة له ، فاستخدمها لجلب الذخائر والرجال من مصر . وكانت حملته هذه نحو سنة ١٤٦٦ ق . م . وقد عاود الكرة مراراً على قادش ، فاستولى عليها ، واعمل الذبيح والنهب في اهلها واراضها فدمر ما لها من جاه وسلطة ، واتزل الرعب في قلوب حلفائها واتباعها فدانوا له . وكانت الغلبة على قادش قاضية على استقلال البلاد ، فاشتت سورية الوسطى اكثر من قرون تخضع لسلطة المصريين ، وقد ساد فيها السكون وعاد اليها السعد . وحفظاً للسيطرة المصرية ، شيد ترميس وخلفاؤه قلاعاً يطو منها الجند المصري على قادش ومجدو ، اذا اتتا باقل حراك ضدّ الفرعون .

ونحو سنة ١٣١٠ قام الفرعون ستي الاول بمحتاج ما تقلص من البلاد عن



الرسم ١ : اسير حثي واسير سوري في قبضة سبي الاول

سيطرة المصريين ، فاحتل قادش واقام فيها نصباً باسمه . ويمثل هذا النصر الفرعون سيتي ، وهو يستلم صولجان النصر من اله مصر امون ، مع خلف الايامون ، الاله مونتر ، وهو اله عاصمة المصريين ، وبعض الالهة الاسيوية . وقد وجد قسماً من هذا النصب العالم الاثري پيزار (Pézar) ، فأرسل الى متحف دمشق ، وغندنا ، في متحفنا ، قالب من الجصين اخذ عنه .

فارس في بر الحثيين

ولم تبق المدينة زمناً طويلاً في حوزة المصريين بعد سبيتي ، لان الحثيين عادوا فاحتلوا البلاد وطردوا منها جيوش مصر . وكان الحثيون قد وصلوا الى اوج سلطنتهم واصبحت منازلهم البلاد السورية شائعة للغاية ، وقد جعلوا لهم فيها حلفاء امنا . كملك حلب ، وغير من ملوك سورية الشمالية .

وقد يتساءل البعض عن حدود المملكة الحثية وعن اصل الحثيين . اما الحثيون فهم شعب غير سامي ، مجهول الاصل ، اقام من زمن بعيد في اسيية الصغرى . وكانت اهم عواصمه على النهر الذي يدعى الآن كيزيل ارمك ، وطاصته خاطوسية شمالي القيصرية . وكانت للحثيين عاصمة اخرى

كبيرة على ضفاف الفرات ، تدعى كركيش ، وهي جرابلس الحالية . وفي منتصف القرن العشرين ق. م . هاجم الحثيون البلاد الكلدانية واحتلوا بابل ، واعملوا في بعض احيائها الحراب ، لكنهم لم يقيموا فيها زماناً بل ترحلوا عنها وعادوا الى جهات كركيش . وحين هاجر ابراهيم الخليل من اوركشديم ، تبع مع قافلته مجرى نهر الفرات ، حتى وصل الى البلاد الحثية وبقي في حران مدة ، وقد دفن فيها اياه .

وما زال الحثيون يوسعون نطاق حكمهم حتى احتلوا معظم آسية الصغرى ، واصبح سلطانهم وطيد الاركان فيها . فالتجعت مطاعهم الى سورية وهي مطمع كل فاتح ، فنازعوها المصريين القرون الطوال . وحين ملك في مصر الفرعون المنحوتب الرابع ، وألهم عن سياسة مصر الاستعمارية مكافئاً في سيل ديانة الاله « الشمس » ، انتهز الحثيون فرصة الاضطرابات الدينية للقضاء على نفوذ المصريين في سورية ، فصاروا تارة يحتلون البلاد بالنف ، وتارة يتحالفون مع بعض ملوكها ، ويمدونهم بالاسعاف ضد انصار الفراعنة . وقد دمرروا قطنا-المشرقة واحرقوا معبدا في ذلك العهد .

وما عادت المياه الى مجاريها في مصر بعودة الفرعون توت عنخ امون الى عبادة الاله امون ، حتى قام بعده الفرعون سيتي وطرد الحثيين من بعض ما احتلوا من البلاد ، وفي طليعتها قادش حيث اقام نصب البصر الذي مر ذكره .

ولكن انى للفرعون المصري ان يثبت سلطانه في بلاد مقيمة له على عدا . صم ، بعد ان اتزل فيها الحراب . فلم يعد سيتي الى مصر حتى قامت البلاد نائرة على جنده ، وعادت اليها جيوش الحثيين موالية او فاتحة .

رعمسيس الثاني والحثيون مركبة قادش

على ان الفرعون رعمسيس الثاني صمم النية على بت الامر بينه وبين الحثيين ، وطردهم من البلاد طرداً نهائياً . فجند جيشاً عديداً مدرباً ، وحمل به على

سورية الوسطى . وقد تبع رمسيس في زحفه طريق السواحل ونصب له مصكراً على القرب من بيروت . ثم نقش نصاً على صخور نهر الكلب ، واكتب صداقة ملك جبيل اخيرام ، بعد ان امداه اثناء من حجر الشطوط (albdire) ، ورمم او بنى مبدأ لإلهة جبيل . وقد حفظت الايام هديته ، وباب مبداه ، وهما الآن في متحفنا الوطني في بيروت^(١) .

ويظن بعض العلماء ان رمسيس تبع في زحفه على قادش وادي نهر الكلب . ولكن ذلك يقارب المحال ، والارجح انه اتى قادش من وادي النهر الكبير شمالي طرابلس .

ولم يكن رمسيس عالماً ان الحثيين وصلوا الى قادش ، بل كان يظنهم في سورية الشمالية ، لان اسيرين منهم اكدا له ذلك . وجازت عليه الحيلة ، فتك معظم الجيش في مكان يدعى شبطونا ، وتقدم مع اركان حربه الى سهول البقاع ، حتى وصل على مقربة من مدينة قادش . واذا بمجنوده يأخذون اسيرين اخرين . فخامرهم الشك بالامر ، واستخبرهما ، وبعد ان زحما بهما اقرأا انهما اتيا ليستطلعا طلع جيشه ، وان ملك الحثيين ، موتالو ، وملك كودي ، في كيليكية ، وملك حلب ، قد استروا مع جيوشهم وراء تل قادش .

وقد وصف رمسيس قادش وصفاً مبهماً ، فقال عنها انها على تل تحيط به المياه من كل جانب ، فهي اشبه بالجزيرة .

ولم يعلم رمسيس الحقيقة ، حتى صاح بقواده موتباً لتهاملهم في استطلاع حالة العدو ، وقد علت في السهل غبار عجلاته . لان العدو في ذاك الحين هاجم ليفدر به . وكان رمسيس في اشد بأسه فارتدى بسرعة ملابسه الحربية ، وامتطى عجلته ، ومجى على الاعداء هجوم الليث ، عظراً عليهم وابلاً من السهام . وحين رأى الجند مليكهم آتياً لنجدتهم زال جزعهم ، وقاموا

(١) الاثارة مروض في خزائن المتحف . اما الباب فتجمل له عن قريب سكاناً في النفر المفتوحة للزوار ، وقد نقش على حجارته رسوم قتل الفرعون ، واسمه مكتوب بالاحرف الهيروغليفية ، وهو من اكتشافات هذه السنة .

ينصرونه ، بعد ان كانوا اخلوا قسماً من المعسكر ، وادشكوا ان يلودوا بالفرار .

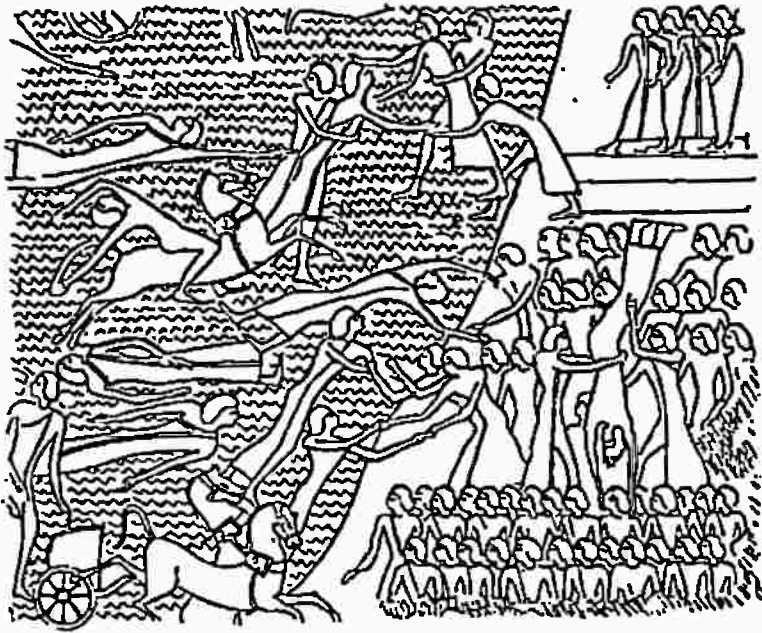
وكان رعميس ارسل ساعياً لباقي جنوده يستمجلهم اليه . فلم يطل الامر حتى وافقه ، في طليعة الجيش ، فرق من شباب الاموريين ، اي اللبنانيين ، الذين تجندوا في جيشه . تمكن عند ذاك من التملص من ايدي الاعداء ، والكر عليهم ، ودارت رحى المعركة اكثر من نهار ، وكانت من اعظم المعارك المعروفة في التاريخ القديم . (الرسم ٢)



الرسم ٢ : رعميس الثاني في المعركة

وفاز الجيش المصري على جيش الحثيين ، فاكدهم على الهزيمة . واغرقت منهم عدداً عديداً في مياه النهر . ويمثل احد النقوش المصرية التي نقشها رعميس على جدران مابده في مصر ، ملك حلب ، وقد قلبه جنده رأساً على عقب ، ليفرغ ما ابتلعه من المياه ، بعد ان اقتتلوه من النهر (الرسم ٣) . ومع شدة المعركة ، لم يتمكن رعميس من الغلبة على الحثيين بصورة نهائية . فعاد اليهم مراراً في السنين التالية وقد ينس الفريقان من احراز النصر .

وما مضت بضع سنين حتى جرت بين المليكين مخاضرات صليحة ، فقرر ان تكون سرودية حتى جنوبي قادش للحثيين ، وان تبقى فينيقية مع ما بقي من سرودية تحت سيطرة المصريين . وختم الملكان عقد التحالف ، ونقشوا شروط



الرم ٣ : جيش الرديف الحثي يخلص الهاربين من المركبة على شاطئ العاصي
ومعهم ملك حاب ، ملوياً رأساً على عقب ، ليفرغ ما ابتلعه من الماء .

الصلاح على صفائح فضية وضعاها كل في معبد الهته . وانقلبت عداوتها الى
صداقة متينة ومحالفة ضد كل خصم . ثم طلب رعيس الثاني يد ابنة ملك
الحثيين ، فأتاه بها والدها حتى بلاد مصر ، فاقام له الفرعون مهرجاناً عظيماً
واستقبله بمحفاوة نادرة ، فمد الشعب المصري مجي ملك الحثيين الى ديارهم
كخضوع لفرعونهم .

موقع قادش

وقد تساؤل علماء الآثار مراراً عن موقع ذلك البلد العظيم ، الذي بقي
مدة ثلاثة قرون ملتقى الجيوش ، فظنوه أولاً في جزيرة التين القائمة وسط
بحيرة حمص . ولكن بعد التنقيب لم يظهر لهم فيها سوى آلات ظرانية تدل
على انها كانت مسكناً للبشر قبل التاريخ . ولكن لم يظهر لهم فيها شيء .
مهم من العهد التاريخي . فانجذبت انظار بعضهم الى اكبر تل في ضواحي البحيرة

وهو جنوبيها ، يمرّ نهر الحاصي شرقيه وتنسل منه ساقية عريضة تمر غربي التل ، فيصبح كبحيرة . ويدعى هذا التل تل النبي مند . وقد زرت من عهد قريب بركة الاثري الشهير الاب روتثال ، الذي كان من اكبر مؤيدي الفكرة القائلة بأن قادش قامت على هذا التل . وموقعه على جانب مهم من الوجهة الحربية ، اذ انه عند مفرد طرق : فهو شمالي مدخل البقاع ، وشرقي مدخل الوادي الذي يؤدي الى النهر الكبير والساحل ، وجنوبي اراضي حماة وحمص ، وغربي الطرق المؤدية الى تدمر والبادية .

ويستطيل التل من الشمال الى الجنوب ، وقد علا عن سطح السهل نحو الثلاثين متراً . وطوله نحو الكيلومتر .

وقد ارسل مؤخراً معهد الآثار الفرنسي بعثة علمية لحفره والتنقيب فيه . وكانت هذه البعثة تحت ادارة اثري شاب يدعى پيذار . فاعمل الحفر في الجهة الشمالية - الشرقية من التل ، وعثر على القمم الاعلى من النصب الذي اقامه الفرعون سيتي في اواخر القرن الرابع عشر ق . م . وعثر ايضاً على آثار البلد في عهد الرومان واليونان ، ويمتد عمقها نحو المشرة امتداد تحت سطح الارض . ثم وجد تحت هذه الآثار بعض بقايا لسور المدينة من القرن التاسع ق . م . تقريباً . ولكن مرضاً عضالاً اصابه وقت الحفريات ، اودى به بعد سنتين من الحفر ، ولم يندع له الوقت لنشر معلوماته ومتابعة حفرياته . ولا يزال تل النبي مند يطوي في جوفه آثار قادش ، وقد يحى الزمان حتى ذكرها في تلك الاماكن . وكان العرب يسمون في الاجيال المتوسطة ان قادش لم تقم بعيداً عن هناك ، اذ دعوا بحيرة حمص بحيرة قدس ؛ وكان طاحوناً صغيراً على جنوبي التل ابى الا حفظ ذكرى البلد القديم فما زال حتى الآن يعرف بطاحون قدس .

